مجلة المعالم

العدد : ١٨٣ الموافق في جمادى الأولى ١٤١٧ هجري ١٠ / ١٩٩٦ ميلادي

عنوان المقال : درس وتنبيه	بقلم : بهاء الدين الأيوبي

هُزمنا خلال التاريخ في بعض المواقع ، وليس غريباً أن نُهزم ، فمن تخلّى عن مبدئه صُفع ، ومن توانى في أخذ سبب عزّه أُهين ، ومن ترك قواعده هُزم عسى أن يثوب إلى رشده. ونحن أمة أعزنا الله بالإسلام ، ومن ابتغى العزة بغيره أذله الله. وقد خالف بعض المسلمين أوامر رسول الله ﷺ يوم أُحد ، وأراد بعضهم الدنيا فدفع المسلمون الثمن غالياً غالياً. هزموا بعد نصر مُؤزّر ، واستشهد أسدهم ، وفقدوا ابني أختيه أبا سلمة ، وعبد الله بن جحش ، وتركوا في ميدان المعركة مصعب بن عمير ، وسعد بن الربيع ، وحنظلة ، وعبد الله بن جبير ، وأنس بن النضر ، وأوس بن ثابت حتى بلغ عدد الشهداء خمسةً وستين شهيداً. وكان ذلك تربية وابتلاءً وعظة واختباراً { **ولقد صدقكم الله وعدَه إذ تَحسُّونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليَكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين** } [آل عمران : ١٥٢].

فالهزائم دروس وتوجيه وتربية وتنبيه. فإذا اتعظت الأمة ، وانتبهت إلى أخطائها ، وتخلت عن تهاونها ، رجعت إلى مكانتها ، وعادت إليها عزتُها ، وإن بقيت على استهتارها ، واستمرت في تكاسلها ، وابتعادها عن مبادئها تابعت في انحدارها وضاعت شخصيتها.

بدأ التساهل في تطبيق الإسلام ، وأخذ الانحراف يأخذ مجراه دون توجيه قائد أو تنبيه عالم ، فضعفت الأمة ، فهزمنا أمام الصليبيين. ومع أننا هزمنا ودخل الأعداء ديارنا ، غير أننا كنا نشعر أننا الأعلون ما دمنا مسلمين ، وأنهم الأدنى ماداموا كفاراً ، وما أن رفع أحدنا راية الجهاد حتى تداعى الناس لتلبية النداء ، والتفّوا حول الراية ، فإذا بالمجد يعود ، وإذا بالمكانة ترجع ، وإذا بالصليبيين في البحر مدحورين. فكانت الهزيمة درساً هزّ كيان المسلمين من الداخل فأيقظهم ، وحرك المشاعر فنبهها ، فوثبت بعد خمول ، ورجعت تفتش عن أسباب هزيمتها فوجدت أن تخليها عن إسلامها قد أضعفها ، وأطمع أعداءها فيها ، فجاؤوا كالوحوش الكاسرة يُبيدون من يجدون أمامهم لما في نفوسهم من حقد ، ويُتلفون كل ما يمرون عليه لجهلهم ووحشيتهم ، ويُهلكون الزرع والضرع.

عاد للمسلمين شيء مما كان لهم من مجد وسؤدد ، وإن كان التهاون والبرود والخمول والجمود لا تزال تسيطر على فريق من الأمة ، فيحتاج إلى مُنبه آخر يدفع بالناس إلى العمل ، ويُحيي فيهم روح الأمل ، يثير العزيمة ويبعث فكرة الجهاد. وانطلق المنبه من المشرق ، حيث قدم المغول الوثنيون

يشجعهم الصليبيون ، فيصفون لهم ديار الإسلام بالجنان أرضاً وبالخير عطاءً ، فأقبلوا على طمع بهمجية الكفر ، وكفر الجوع ، ووثنية الجهل.

أقبل المغول سراعاً ، ما أتوا على شيء إلا جعلوه خراباً يباباً ، بطراً وجهلاً ، وتمادياً وكفراً ، وإخافة وشراً ، وتظاهراً وظلماً ؛ فوقع الخوف في قلوب الذين في نفوسهم مرض ، وأصابت الرهبة الضعفاء ، ونزلت الرعشة في المرجفين ، فوقعت الهزيمة بالمسلمين ، واتجه الهاربون نحو الغرب ، وسقطت بغداد بيد المهاجمين ، لما كان فيها من المرجفين والذين تعمل معاولهم من الداخل هدماً ، فغرّروا بالخليفة ؛ فاكتسحت جموع المغول العاصمة ، واندفعوا كالحمر نحو الغرب ، ينهشون من يجدون ، ويعضون من يلقون بأنياب مكشرة وأضراس فارية ، تفري العظم وتتلذذ بالدم.

اهتزت مشاعر النفوس الأبية لهول المُصاب فأرعدت كتائب الإيمان ، وتعالت صيحات « وا إسلاماه » ، وتحركت طلائع النصر ، فالتقت بجموع المغول الكاسرة ، فضمّ الظاهر بيبرس الجناح الأيمن إلى القلب بهجمة مرعبة ، وضمّ قلاوون الجناح الأيسر إلى القلب بوثبة رهيبة ، فتلقاهم قُطُز بالقلب بضربة قوية أماتت قوادم الأجنحة وخوافيها ، وداس على قائد المغول مقتولاً ، وقبض على ابنه أسيراً ، فأخذه كما يأخذ الصقر العصفور ، وكان الفتح الجليل في عين جالوت.

كانت عظمة معركة عين جالوت أن انكفأت قوة المغول ، وانطفأت جذوة الشرّ عندهم ، وخمدت نار الحقد في نفوسهم ، وشعر المسلمون بقوة إيمانهم ، وأنها سبب نصرهم ، وأساس عزّهم ، وأنهم الأعلون ماداموا على إيمانهم ، وما استمسكوا بإسلامهم ، وأحس المغول أنهم أقزام أمام المسلمين ، فلا عقيدة لهم كعقيدتهم ، ولا لغة لهم كلغتهم ، ولا فكر لهم كفكرهم ، فلم يلبثوا أن اعتنقوا الإسلام ، وذابوا في المجتمع الإسلامي ، وحملوا فكره ، وتكلموا لغته ، وأصبحوا جزءاً منه ، تمّ هذا كله ولم يمض خمسون عاماً على أعنف وحشية ، وأبشع شراسة ، وأقذر همجية لهم ، وغدوا مسلمين يسلم الناس من لسانهم ويدهم بحقّ ، بل لم يلبثوا أن حملوا لواء الإسلام بعد مدة وجيزة ، وربما استمر في أيديهم إلى اليوم على الرغم وضعهم في شرقي أوروبا وما يعانون.

والأمة المسلمة أمة مجاهدة ، إذا غاب الخصم من أمامها هدأت ، وإذا زال بردت ، ولا بد للأمة من جهاد ويتأتى بنشر الدعوة.

فترت همة المسلمين بعد لأي من الزمن ، وهمدت عزيمتهم حيث لا خصم ، فقد دُحر الصليبيون ، وأسلم المغول ، وبردت معنوياتهم ، وذلك كله يحتاج إلى شحذ ، ولكن عوامل الشحذ قد

فقدت ، إذ قل العلماء وتعالم آخرون ، وطويت صحف القادة وتصدر رعاع ، وغاب الموجهون ، وبرز المنتفعون. وأدرك الصليبيون ما حل بساحة المسلمين ، فعملوا على إعادة الكرة على ديار الإسلام ، ولكن خططوا على أن يأتوا من الهامش ويتقربوا حتى يصلوا إلى القلب.

نهض العثمانيون بعبء الجهاد فأسكتوا أعوان الصليبيين ، وصدوا طلائع البرتغاليين ، وتوغلوا في أوروبا ، وحموا ديار الإسلام ، حتى ضعف أمرهم إذ تكالبت عناصر الشر كلها ، كما أنهم لم يتسلحوا بالعلم ، ولا يمكن لأمة حماية حماها وهي على جهل ، إذ دخلت قصورهم نساء أهل الكتاب تحت صفة الإباحة ، مع أنهم في حرب معهم ، فنشأ يهود الدونمة وكان لهم دور في تهديم دولة الخلافة مع بقية أهل الكتاب بالتعاون ، وتوزيع الأدوار. ووصل الأعداء إلى قلب ديار الإسلام ، وبسطوا نفوذهم ، وعملوا على محاربة اللغة العربية والعقيدة تدريجياً ، وقتل الروح المعنوية ، وإماتة الشخصية الإسلامية حتى وصلوا بنا إلى ما نحن عليه اليوم ، فأصبحوا يستعلون علينا ، وحلت بنا عقدة النقص على الصورة المعاكسة التي كنا عليها أيام عزنا ومجدنا.

كنا نرى الجنود البريطانيين في مدينتنا القدس في الحرب العالمية الثانية يتعالون علينا بصفتهم مستعمرين لنا ، ونشعر بضعف أمامهم إن لم أقل بنقص بصفتنا خاضعين لهم ، كان الواحد منهم يسير في الشارع يستعلي ، يرفع هامته كأنه يريد أن يبلغ الجبال طولاً ، ويضرب برجله الأرض يتمنى لو يخرقها عُجباً وتكبراً ، ويقول باعتزاز : « بريطانيا العظمى » فكنا نشعر بالأسى في قلوبنا لما نحن عليه ، ولما هم فيه. ولم يكن الفرنسيون بأقل من ذلك في مستعمراتهم ، ومثلهم الألمان ، والطليان ، والهولنديون ، والبلجيك ، والإسبان ، والبرتغاليون و...

وانتهت الحرب العالمية الثانية وبرزت الولايات المتحدة الأمريكية كأكبر قوة في العالم ، وأخذت تحلّ محلّ أصدقائها الدول الغربية في مناطق نفوذها ، تارة عن طريق الاقتصاد ، وأخرى عن طريق الانقلابات ، ولم تمض مدة حتى غدت أمريكا سيدة العالم ، وخاصة بعد تفسخ الشيوعية العالمية. وبدأت أمريكا تخطط لتدور الدول كلها في فلكها ؛ إما عن طريق قوتها النووية إذ لا تريد السماح لغيرها بإجراء تجارب أو امتلاك أسلحة نووية ، وإما عن طريق امتلاك مصادر النفط الذي غدا عصب المواصلات ، وأساس الصناعة ، وإما عن طريق الأمم المتحدة بالسيطرة على أكثر أعضائها. ومحور التخطيط الأمريكي يقوم على تسيير دول الاتحاد الأوروبي في فلك الولايات المتحدة لتبقى سيدة العالم دون منازع. وأصبح الجندي من دول أوروبا يشعر اليوم في بلداننا غير ما كان يشعره بالأمس ، من التفوق

والعُجب في أنه ينتمي إلى بريطانيا العظمى أو ألمانيا أو فرنسا أو... لقد غدا يحسّ أنه دون الجندي الأمريكي لأن دولته دون الولايات المتحدة الأمريكية ، بل من أتباعها وليس من أصدقائها ، وبدا هذا الأمر واضحاً وعاماً.

وقمت منذ مدة بزيارة بعض الدول الأوروبية ، فشعرت أن شعوبها ناقمة على حكوماتها ، التي صارت تسير في ظل أمريكا وتسايرها في تحقيق أهدافها ، وتعطيها القيادة ، وتوافقها في سياستها الدولية حتى غدت كأنها تابعة لها ، وانتقل الأمر حتى صار الجنود الأوروبيون يشعرون بالتبعية للجنود الأمريكيين ، بل للأمريكيين هيمنة عامة في مجالات الحياة جميعها ، وهكذا ترك الأوروبيون السيادة التي كانت لهم وأصبحوا تبعاً للأمريكان ، وهذا سر نقمة شعوب أوروبا على حكوماتها ، وإن كانت لا تريد إظهار هذه النقمة حتى لا يحدث انفصام ، الأمر الذي يزيد من الطغيان الأمريكي. ولتبقى النقمة مكبوتة ، فإن ذلك أفضل من التمزق الأوروبي ، ووجود التخلخل في صفوف الاتحاد المرتقب أملاً بالوقوف أمام الطفح الأمريكي